الفصل الخامس عشر

وأنا شاب كنت أعتقد أن المسنين ينامون كثيرا، لا يكتفون بالنوم ليلا على أسرّتهم بل يغفون فجأة وهم يشاهدون التليفزيون، أو وهم جالسون بين أفراد الأسرة أو حتى مع الضيوف. الفكرة غير صحيحة، كلما تقدم العمر بي أنام ساعات أقل. أخلد للنوم بعد انتصاف الليل وأصحو على صوت المؤذن، وهو يرفع آذان الفجر من جامع الرحمة، وعندما تدق أم عبد الله الباب في التاسعة يبدو لي أن النهار انتصف إذ أكون اغتسلت وشربت الشاي واستمعت إلى نشرة أخبار مفصّلة وقرأت الجرائد وجلست للكتابة ساعتين أو أكثر. أحيانا أستيقظ في الليل بعد نوم ساعتين أو ثلاث، أفتح دفتري وأسجل فكرة أو أكتب صفحة أو صفحتين ثم أعود إلى سريري. في الصباح أتأمل ما كتبته، كأنني كتبته في منام. يبدو أن هذا ما حدث لي حين كتبت تلك الصفحات الأربع في وجود فارس وشهرزاد. أحيانا أنسحب وأنا جالس على مقعدي أفكر أو أقرأ أو أشاهد التليفزيون، ليس نوما ولا نُعاسا. تغمض عيناي، وتنتظم أنفاسي وأسكن، ربما لأخلو إلى نفسي، أو لتأتيني تلك المشاهد التي تحيِّرني لأنني لا أعرف إن كانت تدخل في باب العلم أو الحلم، فهي دائما ما تأتي مُعلَّقة بين الحقيقة والمنام. ولكنني أكون يقظا، تام الوعي. أفسر الأمر بأنه سَحْبَة خيال أو إمعان في فكرة تتوالد صورا ومشاهد.

يوم قرأت كلام كردي عن نفسه وما فعله في مخيم جنين عدت إلى البيت